

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 11 (2011) : 145 - 162
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة
القرصنة الإيطالية نموذجا

إبراهيم سعيود
قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة

تسلط هذه الدراسة الضوء على قضية سياسية من خلال معالجة موضوع القرصنة المتوسطية. حيث ارتبطت هذه القضية بالاحتكاك الحضاري والصراع العسكري بين ضفتي المتوسط، مما أدى إلى تصاعد النشاط القرصني بقوة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد تجاوز العمل القرصني المسيحي مطاردة السفن وأسر ركابها، إلى القيام بغارات مريعة ضد سواحل المغرب الإسلامي ما أدى إلى وقوع عدد من سكان هذه السواحل في الأسر.

كما شكلت القرصنة ظاهرة، احتلت قلب الحياة المتوسطية في العصر الحديث، أي إلى عصر النهضة، بل حتى سنوات الثورة الفرنسية، ومؤتمر فيينا.

- الأهمية التاريخية والإستراتيجية للبحر الأبيض المتوسط.

للبحر الأبيض المتوسط أهمية تاريخية وإستراتيجية منذ القدم. ألم يقل عبد الرحمان ابن خلدون عنه ما يلي: "والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار"(1)

كذلك يعتبر البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة، ومن أهم البحار التي ارتادها الإنسان منذ القدم، فقد مارست أغلب الشعوب المتوسطية ركوب البحر، فالإغريق بحكم موقعهم الجغرافي، وطبيعة شواطئ بلدهم الجزرية، كانوا مؤهلين لركوب البحر، وكسب عيشهم بالوسائل المختلفة، ولعلّ هذا ما جعل مونتسكيو يؤكّد أنّ "... جميع الأغارقة

الأولين من القراصنة ومن المحتمل أن مينوس الذي كانت له إمبراطورية البحر لم ينل غير الفوز في قطع الطرق..."[2] وقد كان أعداؤهم الطبيعيون هم الفينيقيون، فهم أول الشعوب المتوسطية المحتكرة للتجارة بهذا البحر، وقد أعطت المنافسة على البحر بين الإغريق والفينيقيين بداية الصراع بين الشرق والغرب في المجال البحري. ويمكن النظر لفترة الحروب البونية (264–146 ق م) الطويلة التي دارت بين قرطاجة و روما من هذا الباب، وبعد انهيار قرطاجة سنة 146 ق م سيطر الرومان سيطرة كاملة على هذا البحر لعدّة قرون[3].

ولما جاء الإسلام واستطاع الفاتحون العرب تحرير بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية من الحكم البيزنطي، فوجدوا أنفسهم أمام بيئة جديدة لم يألفوها من قبل لكن سرعان ما تأقلموا مع البحر، فذللوا أمواجه وشقوا عبابه واستغلوا كنوزه[4].

ثم حلّ بالمسلمين عهد الضعف والفتور، وبدأ يشهد البحر المتوسط مع نهاية القرن العاشر الميلادي، وحلول القرن الحادي عشر تزايدا ملحوظا في النفوذ المسيحي على حساب الحضور الإسلامي عموما، وبدأ التدني في النشاط البحري الإسلامي يتضح يوما بعد يوم، وخاصة بعد فقدان جزر البحر المتوسط مثل صقلية ومالطا، بل وأصبح النصارى يهددون السواحل الإفريقية فاحتل روجرز النورماني طرابلس وقابس وصفاقس وفرض عليهم الجزية[5].

لقد رسم هذا التهديد مقدمات الحرب الصليبية التي بدأت في الجبهة الأندلسية ثم انطلقت إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، و امتدت إلى المسلمين في الشرق، ولا يمكن تفسير ما تقدم إلا على ضوء التفكك السياسي الإسلامي، وتدهور النشاط البحري وانهياره، فهو مرتبط أشد الارتباط بالعوامل السياسة والاقتصادية للدولة، رغم كل الجهود التي بذلها الموحدون، وتعتبر سنة 645هـ/1247م في نظر بعض الباحثين[6] المهتمين بالنشاط البحري الإسلامي، هي بداية النهاية للبحرية الموحدية ثم سقوط الدولة وأفول نجمها إلى الأبد سنة 673هـ/1275م.

وبسقوط الدولة الموحدية انقسم المغرب إلى ثلاث دويلات هي بنو حفص في المغرب الأدنى (تونس وطرابلس) وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، والمرينيون في المغرب الأقصى.

وبظهور هذه الكيانات السياسية المتناحرة فيما بينها تحولت الثغور الإسلامية في المغرب من الهجوم إلى الدفاع وأصبح الرباط هو السمة الأولى للجهاد، ولعل هذا ما يفسر كثرة الرباطات على الساحل المغربي نتيجة لتزايد الأخطار المحدقة بهذا الساحل.

وعلى أي حال، فإن هذه الأوضاع وغيرها عكست بصورة واضحة مدى التفوق الذي كانت تتمتع به أوروبا عموما وإسبانيا بصفة خاصة، ذلك التفوق الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باتحاد مملكتي أراغون وقشتالة واستيلائهم على غرناطة سنة 898هـ/1492م أخر معاقل المسلمين في الأندلس، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الأسبان لمواصلة هجماتهم على سواحل المغرب الإسلامي من المحيط إلى طرابلس، يدفعهم في ذلك حقد ديني موروث ورغبة جامحة في التوسع والتنصير(7).

وفي هذا الشأن صرح الراهب خمينيس (Ximenes) أسقف طليطلة بأنه " أول من فكر في إنقاذ شمال إفريقيا من "الوحشية الإسلامية" لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة."(8)

لم يكن للأسبان من هم إلا نقل الحرب إلى إفريقيا بعد أن كانت نفس البلاد الأسبانية مسرحا لهذه الحرب طيلة قرون، وإرغام العرب من أهل إفريقيا على اعتناق دين المسيح بواسطة السلاح "

لقد حاول الأسبان منذ مطلع القرن السادس عشر خلق إمبراطورية مسيحية وترؤسها وبمساعدة من البابا، توج شارلكان الأسباني إمبراطورا للعالم الكاثوليكي سنة 1519م.

شهدت هذه المرحلة ظهور بداية ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث في البحر المتوسط، ولا يجب في هذا الصدد أن نقلل من أهمية المنافسة العثمانية الأسبانية في حوض البحر المتوسط، فقد حاول الأتراك بدورهم في الفترة نفسها، جمع شتات المسلمين، واتخذ ملوكهم لقب الخلافة الإسلامية مباشرة بعد دخولهم مصر سنة 1517م(9).

واعتبر بروديل ميلاد هذين العملاقين أي الدولة العثمانية وإسبانيا في مطلع القرن السادس عشر مأساة للبحر المتوسط، لأنهما كانا سببا في أغلب المواجهات التي عرفتها

البلدان المحيطة بهذا الحوض طيلة قرن ونصف[10].

وقد بينت رحلة أبي القاسم الحجري الجو العام الذي كان يطبع العلاقات الدولية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، وتميزت هذه الوضعية خلال هذه المدّة بالمواجهات الأسبانية التركية في البحر المتوسط، وجسدت الإمبراطورية العثمانية تطلعات الأمة الإسلامية وآمالها شرقا وغربا[11].

إن نجاح العثمانيين العسكري في الشام ومصر، وإشرافهم على البحر المتوسط نبّه اسبانيا والبندقية إلى مدى ثقل وزنها السياسي والعسكري والديني وخطورة هذه الدولة الناشئة، حتى أن البابا ليو العاشر[12] الذي كان يخشى أن تتعرض سلامة أوربا للخطر شرع يعدّ حربا صليبية جديدة. كما استفاد العثمانيون من موقع بلاد الشام لضرب الأسبان والبنادقة وفرسان القديس يوحنا في رودس في عرض البحر المتوسط[13].

ومما لا شك أن التحاق الجزائر بالدولة العثمانية أدى إلى اتساع مجالات هذه الأخيرة في البحر المتوسط، فهي تتوزع على شمال إفريقيا، وجنوب أوربا بشكل يجعلها تحاصر البحر المتوسط من كل الجهات، فالأراضي العثمانية في إفريقيا كانت تحدّ شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وجنوبا بالصحراء الكبرى، وشرقا بالبحر الأحمر، وغربا بالمغرب الأقصى الذي ظل خارجا من نفوذها بالرغم من المحاولات المتعددة والمتكررة للسيطرة عليه، كما ضمت ممتلكاتها في القارة الإفريقية السودان الذي فتح لها الأبواب للسيطرة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر أما الشمال الإفريقي، فإن الساحل منه ظل هو القاعدة الرئيسية للنفوذ العثماني، كما تحول المغرب الإسلامي إلى قاعدة للجهاد البحري، أو ما يسمى عند البعض "بالقرصنة "[14]

وضعت الدراسات الأوربية "القراصنة" المغاربة ضمن نطاق النشاط القرصني المتمركز في سواحل إفريقيا الشمالية على البحر الأبيض المتوسط، بيد أن نشاط القرصنة الأوروبية، بدأ في تاريخ مبكر، عندما أغارت اسبانيا على مدينة سلا سنة 1260م[15].

إن الحديث عن الظروف التاريخية التي أفرزت ظاهرة القرصنة على امتداد سواحل المغرب الإسلامي كشكل من أشكال الدفاع الشعبي تارة، ومظهر من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة الأوربية وتهديداتها في ظل اختلال القوة تارة أخرى، ينبغي أن لا يخفي الوجه الأخر للقرصنة الأوربية المتمثل في نشاط القراصنة الأوربيين الذي لم يكن وليد

ظروف الكشوف الجغرافية، والطرد الأندلسي فحسب بل هما امتداد لاحتكار حضاري وصراع عسكري تجلّت أبرز مظاهره خلال الحروب الصليبية المتوالية ابتداء من العصر الوسيط. ومن هذا المنطلق يمكننا التشديد على دور العامل الديني في تحريك الجانبين نحو الصدام، وكونه ظل عاملا فاعلا في ذلك الاحتكاك حتى بداية القرن التاسع عشر(16).

وأمام هذه الوضعية، أصبح المغاربة يفكرون في الدفاع عن الذات بنفس السلاح المتمثل في الغزو البحري، متمثلين بقول الشاعر أبي محمد القاسم بن عبد الله التميمي:

إذا كـان لا ينجيـك أنـك هـارب	**فلـم يبـق حـزم غيـر أنـك هـاجم**
وطيـب حيـاة المـرء فـي عـزّ موتـه	**ومـا المـوت إلا أن تهـون الكـرائم(17)**

لذلك نشأت حركة دفاعية في بعض مدن الساحل الجنوبي للمتوسط لم يكن هدفها في هذه المرحلة مهاجمة العدو (دار الكفر) ونشر الدين الإسلامي وفتح بعض المناطق، بل اقتصر على نوع من الغزو البحري. وبما أن الأسبقية والتفوق العددي والتقني كانت للمسيحيين فقد ظهرت حركة الغزو من طرف المدن الإسلامية وكأنها دفاع عن النفس لا أكثر.

وصفت القرصنة في بداية القرن السادس عشر، بأنها إستراتيجية تسمح بشن الحملات، ولذلك ارتبطت القرصنة بتلك الحروب التي قامت في أوروبا، ثمّ اتسع نطاقها مع ظهور الدولة العثمانية على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وبذلك اتخذت القرصنة منحى آخر، منفصلا عن الحروب، مما أدى إلى اتساع هذه الظاهرة، وتطور عملياتها، وتعدد اتجاهاتها، وبالأخص خلال القرن السابع عشر الذي أطلق عليه "قرن القرصنة" (18)

وتزايد في النصف الثاني من القرن السادس عشر نشاط القراصنة الأوربيين فيما أصبح يعرف بالقرصنة الأورو–أوروبية، فكان قراصنة الهابسبورغ يقومون بعمليات نهب وسلب للسفن الأوروبية التي تمرّ بالسواحل التابعة لهم، كما اكتسح الانجليز مناطق ساحلية كثيرة، وتمكنوا خلال سنة واحدة من الاستيلاء على 12 سفينة بندقية، وثار

القراصنة الهولنديون ضد السفن الأسبانية خلال الفترة الممتدة من 1565و1570 حيث وصفهم الشاعر الأسباني كويفيدو بالمتمرّدين عن الرب والملك[19]

ومع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، وعلى إثر منع الملك جيمس الأول (James I) أعمال القرصنة والغارات في البحار، غيّر القراصنة الأوربيون موانئهم في انكلترا وايرلندا، واتجه كثير منهم نحو سواحل شمال إفريقيا كما قام قراصنة هولنديون وانجليز برحلات بحرية في المناطق الساحلية المحاذية لجبل طارق واستولوا على اسبانية إلى الجزائر وتطوان وآسفي وسلا حيث باعوا غنائمهم[20].

وعندما قام الانجليز والهولنديون بطرد القراصنة من البحر الايرلندي، بداية من 1611م، اتجه هؤلاء صوب السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، وورد في إفادة عن البحارة الانجليز بتاريخ 14 يوليو 1611م ما يلي: "في مجموعة هذه الأنواع من السفن الحربية هناك أربعون سفينة وألفا رجل جميعهم من الانجليز، وملتقاهم شمال غرب إفريقية حيث يتواجد تجار كثيرون، يتاجرون معهم بجميع أنواع السلع خاصة تلك التي ترد من ليفورنو، كما يتاجرون في الأسرى أيضا."[21].

بدون أدنى شك كان القراصنة الأوربيون يعتدون أكثر مما كان يعتدى عليهم من قبل القراصنة المغاربة، فغارات القراصنة الأوروبيين المتكررة على سفن القراصنة المغاربة أنذرت بقيام القراصنة المغاربة بالرد بالمثل والسطو على السفن الأوروبية، فقد تعرّض القرصان توماس مادوك في سنة 1631م، طريق سفينة تابعة لمغاربة، واستولى عليها، كما أسر ركابها وملاحيها وباعهم رقيقا في اسبانيا[22].

ومما يلاحظ أنه بالرغم من النمو والتطور السريع الذي شهدته البحريات الوطنية في الدول الأوروبية منذ منتصف القرن السابع عشر، فقد بقيت البحريات الخواصية تعمل جنبا إلى جنب مع البحريات الرسمية حتى عام 1814[23].

لقد طغى النشاط القرصاني الأوروبي في المتوسط خلال حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، وتكبدت الجزائر من جراء ذلك صعوبات ومشاق باضطرارها بحكم المعاهدات التي أبرمتها مع الدول الأوروبية باستقبال قراصنتها في موانئها وتحمل المشاكل والصعوبات الناجمة عن ذلك في مثل هذه الظروف[24].

- دور بعض المدن الايطالية في الصراع المتوسطي.

لعبت بعض المدن الايطالية دورا بارزا في الصراع المغربي الأوروبي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وكان لتلك المدن تأثيرا على سيرورة ذلك الصراع، وساهمت مساهمة كبيرة في توسيع فضاء نشاط القرصنة على مدى الفترة الحديثة، واكتسى الدور الذي لعبته المدن الايطالية أهمية بالغة في الصراع العثماني الأسباني(25).

ومن النتائج التي عادت على المدن الايطالية- بسبب القرصنة والمشاركة في الصراع العثماني الاسباني- تثبيت أقدامها في الحوض الغربي للبحر المتوسط وتكوين مراكز تجارية بمحاذاة سواحل المغرب، حتى أن بعض تلك المدن قامت بدور الوسيط بين مالكي الأسرى في بلاد المغرب ونظرائهم من الأوروبيين بقصد افتدائهم، وروجت لسياسة بيع الأسرى كعبيد داخل إيطاليا وخارجها، وهذا ما يبين حرص تلك المدن على استمرار الصراع العثماني الاسباني، وتعد جمهورية البندقية في مقدمة تلك المدن في استخدام سياسة الازدواجية حتى أن البابوية أطلقت عليها صفة الهرطقة لتعاونها مع العثمانيين في بعض الأحيان(26).

ولكي يمكن فهم الدور الذي أدته بعض المدن الإيطالية في مجال القرصنة في الحوض الغربي للمتوسط خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، يكون من الضروري أن نتعرض لطبيعة ما كانت عليه علاقات العثمانيين بهذه المدن في الفترة التي سبقت القرن السادس عشر، ولا سيما البندقية وجنوة، وذلك على اعتبار امتلاك تلك المدينتين لمراكز تجارية متعددة في آسيا الصغرى والبلقان، ونظرا لظهور العثمانيين في تلك المنطقة الحيوية، جاء توسعهم على حساب تلك المراكز التجارية. فقد نتج عن ذلك - بطبيعة الحال- وجود احتكاكات وصدامات مباشرة بين العثمانيين وجمهوريتي البندقية وجنوة(27).

ومما تجدر الإشارة إليه عقد أولى المعاهدات بين العثمانيين والبنادقة في أغسطس 1305م بعد خوض حروب طويلة بينهما. وبموجب تلك المعاهدة، تمّ تقديم عدة تنازلات متبادلة بين الطرفين(28).

غير أن ثمّة عوامل أخرى أدت إلى احتدام الصراع بين العثمانيين والبنادقة، يكمن أهمها في وجود تنافس كبير بين البندقية وجنوة، الأمر الذي أتاح الفرصة الكاملة أمام

العثمانيين للتوسع[29]. ففي الوقت الذي اندلع فيه القتال بين الدولة العثمانية (في عهد السلطان أورخان) والبندقية بين عامي 1351

و1352م نجح الجنويون في كسب ود السلطان العثماني حتى أن مطالبهم كانت تحظى باهتمام بالغ من من السلطان أورخان[30]. ولعلّ ذلك التقارب العثماني الجنوي أثار حفيظة البنادقة الذين أخذوا يروجون لدى بابا الفاتيكان جريجوار الحادي عشر للقيام بحملة صليبية على الإمبراطورية البيزنطية ومن ثمّ يمكن للبنادقة السيطرة على مراكز جنوة التجارية ووقف التوسع العثماني. مما حمل الجنويين على عقد معاهدة دفاع مشترك بين جنوة والإمبراطور البيزنطي يوحنا وابنه أندرونيقوس في2 نوفمبر 1382م.

وفي عهد السلطان العثماني مراد الأول (1326–1388) أبرمت جنوة أول اتفاق بينها وبين الدولة العثمانية في 8 جوان 1387م.

وعندما تولى مراد الثاني (1403–1451) حكم الدولة العثمانية بين عامي 1421 و1451، لم تتوقف الدولة العثمانية عن استخدام السياسة العدائية تجاه العثمانيين نظرا لتلاحق الإنتصارات التي كان يحققها كل من محمد الأول (1379–1421) ومراد الثاني على حساب الإمبراطورية البيزنطية والمراكز التجارية للبندقية[31].

وعلى إثر سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين، أصبحت جنوة والبندقية وجها لوجه أمام السلطان العثماني محمد الثاني (1429–1481). وكان من الممكن أن تحتفظ جنوة والبندقية بمكانتهما التجارية في منطقة الشرق الأدنى لولا مساهمتهما الفعّالة البرية والبحرية بقصد الدفاع عن القسطنطينية. وعلى ذلك أ السلطان العثماني على عاتقه القضاء على جل المراكز التجارية لجنوة على البحر الأسود وبحر إيجه منذ عام 1454 حتى عام 1475[32].

أمّا البندقية، فقد كان لموقفها العدائي المعلن والصريح من الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني، أنها بذلت كل الجهود للحيلولة دون نجاح هذا الأخير في بسط هيمنته على القسطنطينية، حيث شكّلت أعداد كبيرة من البنادقة خط دفاع عن القلعة ضد العثمانيين[33].

مما سبق تبين أن علاقات العثمانيين ببعض المدن الإيطالية ولا سيما جنوة والبندقية

اتسمت بكونها غير مستقرة نتيجة للأحداث الجسام التي تخللت القرن الخامس عشر، حيث تمّ القضاء على الإمبراطورية البيزنطية عقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين سنة 1453م[34]. غير أن هذه الأوضاع سرعان ما تغيرت وتبدّلت باعتلاء السلطان العثماني بايزيد الثاني عرش السلطنة سنة 1481م، حيث شهدت علاقاته مع البندقية تطورا ملحوظا، وبمجرد تولي السلطان سليم الأول قام بتجديد المعاهدات مع البندقية سنة 1517م[35]، ونصت بعض بنود المعاهدة على:

– مقابلة رعايا البندقية من الجميع بترحاب وعدالة وسلوك اجتماعي ممتاز في جميع الموانئ التابعة للدولة العثمانية بما فيها مصر.

– تجنب إلحاق أي أذى أو ضرر أو مضايقة للبنادقة.

– السماح لقنصل البندقية بمزاولة النشاط التجاري.

– يباشر القنصل البندقي الشؤون القانونية والقضائية لمواطنيه.

– عدم اعتراض سفن البندقية الراسية في الموانئ التابعة للدولة العثمانية.

يتضح من بنود هذه المعاهدة مدى الاستفادة التي عادت على البندقية، فبفضلها لعبت دورا تجاريا هاما في أوروبا، والذي تمثل بالخصوص في أنشاء وكالات تجارية امتدت حتى شمال غرب أوروبا.

- القرصنة الإيطالية وفضاء نشاطها.

كانت ثمّة عوامل ساعدت على ظهور وتطور القرصنة الإيطالية بشكل عام والبندقية والجنوية بشكل خاص، منها ما تعلّق بتعرض علاقات البندقية مع المماليك لفترات من التوتر مثلما حدث في عهد السلطان المملوكي إينال، عندما قام بالتضييق على التجارالأجانب بمن فيهم البنادقة، وذلك عقب سقوط القسطنطينية مباشرة خشية من تزايد أعدادهم، كما بلغ حد التدهور بينهما منذ عام 1511م عندما تمّ القبض على اثنين من البنادقة، كانا يحملان في جعبتيهما خطابين من الشاه الصفوي، أولهما إلى قنصل البندقية في الشام، والثاني إلى قنصلها بالإسكندرية حينها تأكد السلطان الغوري من وجود اتصالات بين البندقية والصفويين[36] أيضا كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين سنة 1497م من أكبر العوامل التي أدت ببعض المدن الإيطالية إلى التحول إلى

الاعتماد على الحوض الغربي شريانا حيويا للقرصنة والجارة في آن واحد[37].

ومهما يكن من أمر، نجح البنادقة فيكسب ثقة العثمانيين والأوروبيين على السواء، حيث رأى العثمانيون أنّه من الضروري المحافظة على التعايش السلمي مع البنادقة كي يمكنهم مواجهة الخطر الشيعي الذي شكّل تهديدا مباشرا لممتلكاتهم، كما رأى الأوربيون أنه لا غنى عن البنادقة على اعتبار ما لهم من خبرات واسعة في ارتياد البحار وقدرتهم على ممارسة الوساطة التجارية ببراعة منتهزين في ذلك قدم علاقاتهم بالمغرب والمشرق[38].

وظهر الدور الحقيقي للبندقية في الصراع العثماني الاسباني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط عندما شرع السلطان العثماني سليمان القانوني في توجيه ضربات قوية إلى السواحل الإيطالية الخاضعة للملك الاسباني شارل الخامس، والتي كانت منطلقا لتجهيز ملك اسبانيا لسفنه، لتوجيه ضربات للسواحل المغربية.

وعلى الرغم من الامتيازات المتعددة التي منحها العثمانيون للبنادقة، فإن الشواهد التاريخية أثبتت وجود مساهمات فعّالة للبنادقة في الصراع العثماني الاسباني إلى جانب الاسبان ومن دلائل ذلك وجود 80 سفينة بندقية ضمن الأسطول الاسباني بقيادة الجنوي أندري دوريا لمهاجمة السواحل المغربية سنة 1537م[39].

ويجدر بنا أيضا أن نشير إلى دور جنوة في احتدام الصراع في البحر المتوسط بعد القضاء على مراكزها التجارية بالشرق الأدنى مما أثر سلبا على مكانتها التجارية، ولم يكن بمقدور جنوة الصمود أمام البندقية، نظرا لتفشي الفوضى نتيجة للانقسامات والمنازعات الداخلية، مما جعلها عرضة لسيطرة ميلانو لفترة طويلة[40]

وكانت جنوة تتمتع بحضوة كبيرة ومكانة متميزة في الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ العصور الوسطى، حيث كانت تربطها مع بلاد المغرب معاهدات واتفاقيات مكنتها من ممارسة التجارة البحرية، وعندما تطلّع البرتغاليون إلى السيطرة على الطرق التجارية تمهيدا لاحتكارها، كان عليها أن تصطدم مباشرة بالجنويين. وما من شك في أنّه بعد استيلاء البرتغال على سبتة المغربية سنة 1415م نجحت في زعزعة الاستقرار الجنوي في تلك المنطقة. وقد بلغ الأمر حدا جعل البرتغاليين يلجأون إلى استخدام القوة حيث قاموا بتوجيه حملات عسكرية على مراكز جنوة التجارية في المغرب الأقصى، مثلما حدث بين عامي 1514 و1517م.

ونتيجة لتلك الأسباب، رأى الجنويون أنفسهم مضطرين إلى الارتماء في أحضان إسبانيا بقصد الحماية، مما أتاح لهم فرصة ممارسة القرصنة، فضلا عن استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي الذي من خلاله إلى بسط سيطرتها على بلاد المغرب باعتبار أن ذلك يعد في نظرها امتدادا لحرب الاسترداد التي تبنتها إسبانيا منذ فترة طويلة[41].

ومن الراجح أن الجنويز انتهزوا فرصة استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي، وذلك بتقديم كل العون والمساعدة كي يضمنوا لأنفسهم الاستمرار في تحقيق المكاسب من جراء ممارسة القرصنة، فاحتلوا جيجل، وأقاموا بها قلعة لصيد المرجان عام 1513، وقد بلغ عددهم في جيجل آنذاك نحو ستمائة فرد، وقد تمكن الإخوة برباروس من افتكاك جيجل من أيدي القراصنة الجنويز عام 1514م[42].

وبالفعل، لم يجد الإسبان بدا من استيعاب القراصنة الجنويز والسماح لهم باستخدام موانئهم، نظرا لأن حاجتهم إلى الجنويين كانت ملحة وضرورية. ومما زاد في أهمية اعتماد الملك الإسباني شارل الخامس[43] على جنوة، أن مسرح الأحداث الذي كان يدور عليه الصراع ضد العثمانيين، كان يقتضي ضرورة امتلاكه لأسطول ضخم كان الجنويون يشكلون العمود الفقري لبناء هذا الأسطول، إذ أمدوه بالفنيين المهرة، وأصحاب الخبرة في هذا المجال، مما ساعده على إنشاء عدد كبير من السفن الحربية.

وبسبب ضعف الدولة الحفصية غزا قراصنة نابولي وجنوة المهدية، وأخذوا ما فيها وفرّقوا أهلها، وهدّموا سورها، وكان ذلك سنة سبع وخمسين وتسعمائة للهجرة، 1550م ثمّ أتوا جزيرة جربة وامتلأت أيديهم من مغانمها ومكثوا بها ستة أشهر، حتى افتكها منهم درغوث باشا[44].

- آل دوريا وممارسة القرصنة أو "الذهنية المتوارثة".

عرف عن آل دوريا عداءهم الشديد للمغرب بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، فقد قاد أفراد من هذه العائلة حملات عديدة على الجزائر، ففي سنة 1260 تمكن الجنويز من احتلال جيجل[45] وأقاموا فيها مركزا تجاريا لأجل التبادل التجاري بين إيطاليا وإفريقيا[46] وقد تضاءل ذلك المركز التجاري لتصاعد ظاهرة القرصنة الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الخامس عشر.

خشي الجنويز من احتلال الإسبان لبجاية، خوفا من امتداد الأطماع الإسبانية إلى جيجل، ولتأكيد سيادة الجنويز على جيجل قاموا باحتلالها من جديد سنة 1513م بقيادة أندري دوريا، الذي أرغم سكانها على الانسحاب إلى المناطق المجاورة، وأعاد إحياء نشاط المركز التجاري من جديد.

ورغم ذلك فقد كلّف شارل الخامس، الأميرال الجنوي أندري دوريا بشن حملة على الجزائر سنة 1531م، وقد أبحر هذا الأخير من جنوة في جويلية 1531م مصحوبا بتسع وعشرين غليوطة، وألف وخمسمائة رجل، ولمّا أشرف على شرشال حاول مباغتتها، مستغلا انشغال الأسطول الجزائري، باستعداداته للهجوم على مدينة قادس، وقد تمكن دوريا من إحراق بعض السفن الجزائرية غير أن السكان انقلبوا عليه بعد أن خرجوا من مخابئهم، كما وصلت في نفس الوقت نجدة متكونة من عشرين سفينة قدمت من مدينة الجزائر، فاضطر دوريا للتراجع والانسحاب نحو جزيرة مايورقا تاركا وراءه مئات الأسرى، وعددا كبيرا من القتلى، ومع ذلك فقد استمرّ دوريا في تكثيف نشاط القرصنة، وتكثيف نشاطه العدائي ضد الدولة العثمانية في شرق المتوسط[47].

تواصلت الهجمات الجنوية على الجزائر في عهد الملك الأسباني فيليب الثالث[48] الذي حاول فرض سيطرته على البحر المتوسط، بمباغتة الجزائر، بقيامه سرا بإعداد حملة صليبية ضخمة ضمت القوات البحرية الإسبانية والبحرية البابوية والبحرية الجنوية، وأسندت قيادة هذه الحملة للجنوي جيوفاني أندري دوريا إبن الأميرال أندري دوريا.

أبحر أندري دوريا من جنوة في أوائل شهر أوت 1601م على رأس أرمادة بحرية مشكلة من 68 سفينة على متنها عشرة آلاف جندي، وقد ذكر دوريا في رسالة بعث بها إلى الفاتيكان بتاريخ 25 أوت 1601[49] أن هذه الحملة هي الأقدس على الإطلاق، وأن الله اختاره ليكون على رأسها، وفضله على غيره وأنه الأجدر بمحاربة الشياطين، ودعى من خلال رسالته هذه التي وجه نسخة منها إلى حاكم جنوة أيضا كل الدول المسيحية للمشاركة في هذه الحملة، للمساعدة على تحرير الأسرى المسيحيين. إلا أن هذه الأرمادة فشلت في تحقيق غايتها، وسرعان ما عادت أدراجها، وعادت من حيث أتت بعد أن تبين لدوريا أن التحصينات ستحول دون تنفيذ خطته.

استمرت جمهورية جنوة في ممارسة القرصنة ضد السفن الإسلامية في البحر المتوسط مستعينة بقوات فرسان مالطة تارة، وبقوات فرسان القديس ستيفان تارة أخرى، وذلك طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر ففي سنة 1794 وبسبب الهجمات المتكررة للبحارة الجنويز على البحارة المسلمين في البحر المتوسط أمر الداي[50] بتجهيز المراكب الجهادية، والاتجاه بها إلى سردينيا وجنوة، وقد تمكن البحارة الجزائريون من الاستيلاء على عشرة مراكب سارد وبعضها جنوي[51].

ومن جهته صمم دوق توسكانيا فرديناند الأول على تجهيز حملة لغزو عنابة، وقد أسند هذه المهمة لفرسان القديس ستيفان، ويعود استهداف عنابة حسب قارنييري[52] (Garnieri) إلى سببين رئيسيين:

الأول أن عنابة كانت تشكل مصدر قلق للدويلات الإيطالية، وتهديدا مستمرا للمصالح التجارية لدوقية توسكانيا، ضف إلى ذلك فقدان جمعية فرسان القديس ستيفان لعدد معتبر من بحارتها في هذه المدينة.

ثانيا كانت عنابة تمثل سوقا رائجة لتجارة الأرقاء المسيحيين، لذلك كان الهدف من هذه الحملة هو تحرير الأسرى المسيحيين.

انطلقت الحملة التوسكانية من ليفورنو في شهر سبتمبر 1607 مشكلة من تسع سفن من نوع غليوطة، وخمس سفن أخرى حاملات أسلحة، على متنها ألفي جندي، ومئات المتطوعين بقيادة سيلفيو بيكولوميني، وصلت الحملة التوسكانية إلى سواحل عنابة في الخامس عشر من سبتمبر 1607، وشهدت المدينة دفاعا مستميتا، لكن نقص وسائل الدفاع مكّن القوات التوسكانية من اكتساح المدينة، ومحاصرة أماكن تواجد الأسرى، فتمّ تحرير العديد منهم، كما غنمت قوات بيكولوميني غنائم كثيرة، ولما سمع التوسكانيون بقرب وصول النجدة من مدينة الجزائر، تراجعوا وولّوا الأدبار[53].

وفي خاتمة هذا المقال لابد من الوقوف عند بعض النتائج:

يبدو من المفيد أن نذكر بأنّ فرسان القديس يوحنّا بمالطة، وفرسان القديس ستيفانو بتوسكانيا، لم يتوقفوا عن تعدياتهم ومطاردتهم للسفن الإسلامية، وأسر الحجيج والتجار وغيرهم.

لقد نشأت غارات القرصنة الأوروبية الواسعة والكثيفة بفعل ظروف مواتية خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر، وفي مقدمتها الظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك في المغرب الإسلامي.

ساعد عدم الاستقرار خلال فترة الانقسامات، والصراعات والضعف في بلدان المغرب الإسلامي، على اتساع غارات القراصنة الأوربيين على السواحل المغاربية.

كان دافع قراصنة أوروبا المتوسطية في بادئ الأمر هو الانتقام من الموريسكيين، وملاحقتهم في بلاد المغرب، ثم تطور هذا الدافع إلى التضييق عليهم في بلدان المغرب حتى لا يعودوا إلى اسبانيا وذلك باحتلال بعض الثغور.

ظلت إسبانيا تعتقد أن الموريسكيين قد اتخذوا من منطقة المغرب الإسلامي قاعدة لاستجماع قواهم بتحالفهم مع المغاربة والعثمانيين قصد استعادة الأندلس.

وصفوة القول أن العلاقات المتوسطية خلال العهد العثماني قد شهدت تطورات واضحة على الصعيد الاجتماعي والسياسي وحتى الاقتصادي، كما اتسمت بتناقضات كثيرة أيضا لأن الدويلات الإيطالية لم توفق في اتخاذ سياسة موحّدة تجاه المغرب الإسلامي، وذلك بسبب العلاقات المتذبذبة والمتناقضة بين حكومات الدويلات الإيطالية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ارتباط بعض هذه الدويلات سياسيا بالدول الأوروبية الكبرى آنذاك كإسبانيا وفرنسا، والنمسا مما جعل العلاقات تتأرجح بين السلم تارة والحرب تارة أخرى. لذلك لم تنجح الدويلات الإيطالية كليا في إقامة سلام دائم وشامل مع دول المغرب الإسلامي، مما زاد في حدّة المشاكل المتعلقة بمسألة القرصنة.

الهوامش

* نعني بالفترة الحديثة في تاريخ الجزائر، مرحلة التواجد العثماني الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون (1518–1830) أما بالنسبة للتاريخ الأوروبي فهي محددة من القرن الرابع عشر إلى عصر الاستنارة أي إلى غاية القرن 18.

(1) ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون. دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م، ص 243.

(2) مونتسكيو روح القوانين.

(3) الطويل أمحمد سعيد، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795–1832)

دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2000م، ص 21.

(4) ينسب للسلطان العلوي مولاي إسماعيل القول: "إن الله قلّد المسلمين سلطان البر تاركا للكفرة سلطان البحر"

« Dieu a donné aux musulmans l'empire des terres laissant aux paiens celui de la mer » cité par : Coindreau (R), Les Corsaires de Salé. pp. 45-55.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 201.

(6) عمار عياد المبروك: البحرية في عهد الموحدين. رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، ليبيا، 1991، ص. 137

(7) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492–1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.1976. ص. ص. 77–78.

(8) المدني، نفس المرجع ، ص, 82.

(9) القدوري عبد المجبد، سفراء عرب في أوربا 1610–1922، الوعي بالتفاوت. دار السويدي للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص. 58.

(10) BRAUDEL (Fernand), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II .Tome 2, Paris, 1976, p. 122.

(11) أبو القاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين. تحقيق محمد زروق، مطبعة النجاح الدار البيضاء. 1987

(12) ليو العاشر: ولد في فلورنسا سنة 1475، انتخب على رأس الكنيسة البابوية في 19 مارس

1513 حتى وفاته سنة 1521، كان من أقوى حلفاء شارل الخامس، كما أعلن حربا شعواء على لوثر وأتباعه، وكان حسن الوزان صاحب كشوف إفريقيا أسيرا في الفاتيكان في عهده.

(13) عبد الجليل التميمي: رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16م. المجلة التاريخية المغربية، عدد 29–30،سنة 1983، ص. 72.

(14) إيفانوف نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516–1574)، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، مراجعة مسعود ظاهر. دار الفارابي، بيروت، ط.1 ، 1988، ص. 200.

(15) جيروم. ب. وايز: " المغرب وقراصنته المغاربة في القرن السابع عشر" تعريب طارق العسكري وعبد الهادي التازي، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، السنة السادسة عشرة، العدد 29–30، الرباط،

المغرب، 1399هـ/1979م، ص.ص. 14–17.

(16) أمين محمد، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الأسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر"

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد الحادي والعشرون، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر/أيلول 2000م. ص. 24.

(17) إبراهيم جدلة: "إفريقية والغزو البحري في العصر الوسيط من القرن 4هـ/10م إلى القرن 10هـ/16م" " مجلة البحث العلمي، العدد 45، السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1998،ص، 59.

(18) **Merrouche (L), Recherches sur l'Algérie à l'époque Ottomane II. La course mythe et réalité, éd, Bouchene France, 2007, P. 106**.

(19) .**Merouche, Ibid, p. 106**.

(20) جيروم .ب. وايز: المرجع السابق، ص. 21.

(21) جيروم: نفس المرجع، ص. 22.

(22) جيروم: المرجع السابق، ص. 30.

(23) جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619–1830.

المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر، 2007، ص. 250.

(24) قنان: نفس المرجع، ص. 251.

(25) **Belhamissi (M), Les Captifs Algériens et l'Europe Chrétienne**.
E.N.A.L, Alger, 1988, p. 15.

(26) يلماز أوزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جزءان، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة د. محمود الأنصاري، الطبعة الأولى، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل 1408هـ/1988م، ج1 ص. 89.

(27) و. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، أربعة أجزاء، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1994، ج3، ص. 116.

(28) و. هايد: نفس المرجع ، ص. 117.116

(29) محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة. الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت. 1429هـ/2008م، ص. 122.

(30) ثريا فاروقي: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها. ترجمة د. حاتم الطحاوي، مراجعة عمر الأيوبي. دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت. 2008.، ص. 216.

(31) يلماز أوزوتا: المرجع السابق، ج1 ، ص. 122.

(32) عبد الجليل التميمي: دراسات في التاريخ العربي العثماني من 1453 إلى 1918، سيرميدي زغوان، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، مارس 1994، ص. ص. 33–37.

(33) و. هايد: المرجع السابق، ص. 165.

(34) عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2 ، الطبعة الثانية، مكتبة

الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986. ص. 700.

(35) احتوت المعاهدة على 32 بندا حول تفاصيل هذه المعاهدة أنظر:

- Lybyer (A.H), « The Ottoman Turks and the raods of Oriental Trade » in, English Historical Review, London, 1915, pp. 577-588.

(36) يلماز أوزوتونا: المرجع السابق، ص. 233.

(37) نعيم زكي فهيم: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب(أواخر العصور الوسطى) المكتبة العربية، القاهرة، 1393هـ/1973م، ص. 132.

(38) عبد الرحمان عبد الله الشيخ: " دور المسلمين في تشكيل اقتصاد إمبراطوريتي جنوة والبندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر" المجلة التاريخية المغاربية (للعهد الحديث والمعاصر) العدد 43–44، تونس، نوفمبر 1986م، ص. 159.

(39) صلاح العقاد: المغرب العربي. دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. 1980، ص.ص. 9–15.

(40) حول تاريخ إيطاليا في الفترة الحديثة راجع:

- Godechot (Jacques), Histoire de l'Italie Moderne (1770-1780) Vol, 1. Paris, 1971.

(41) R.Ricard, « Contributions à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise 1415-1550 » in, Annales de l'Institut d'études Orientales. T III, 1937, p. 59.

(42) إبراهيم سعيود: "لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني" مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، العدد 7، جامعة الجزائر، 2007.ص. 206.

(43) شارل الخامس: ولد سنة 1500 وورث ملك اسبانيا عن والدته جان ابنة فرديناند وإزابيلا ، وانتخب أميرا لألمانيا بعد موت جدّه لأبيه الإمبراطور مكسيمليان وقضى أيامه في محاربة فرنسوا ألأول، وحارب خير الدين باشا أمير البحر الشهير بارباروس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح، تنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب، وعن ألمانيا لأخيه فرديناند، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1658. راجع:

– المحامي: تاريخ الدولة العلية ...، مصدر سابق، ص. 204.

(44) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الأول الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1396هـ/1976م،ص. 18.

(45) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج3، دار الثقافة بيروت، 1400هـ/1980م، ص. 37.

(46) أحمد توفبق المدني: حرب الثلاثمائة سنة ...،المرجع السابق، ص. 166.

(47) إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص. 207.

(48) فيليب الثالث: إبن وخليفة فيليب الثاني، ولد في مدريد سنة 1578، تولى حكم إسبانيا سنة 1598

واستمر في الملك حتى سنة 1621، قام خلال الفترة من 1609 إلى 1611 بطرد نحو خمسمائة ألف موريسكي. راجع:

- Dictionnaire Encyclopedique Larousse. Paris, 1979. P. 1084.

(49) B.A.V, URB-LAT, Lettere alla Ripublica di Genoa.

(50) هو حسن داي بن بوحنك (1791–1798)

(51) تستخدم بعض المصادر ذات الصلة بتاريخ الجزائر في العهد العثماني مصطلحات مثل: الجنويز للدلالة على الجنويين، وكذا السارد للدلالة عل السردينيين، والنابوليتان للدلالة على النابوليتانيين، حول هذه التسميات ينظر:

– أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر. تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني. ط2 . ش.و.ن. ت، الجزائر. 1980. ص. 66.

(52)Garnieri (G), I Cavalieri di Santa Stefano. Pisa, 1960, p. 144

(53)Garnieri (G), Ibid, p. 144.